

الحسنات والسيئات

عباد الله: أمرنا الله بتقواه والإكثار من الحسنات لأنها طريق النجاة وأمرنا بالتوبة من السيئات قبل الممات لأنها طريق الهلاك. يقول الله عز وجل (من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها وهم من فزع يومئذٍ آمنون ومن جاء بالسيئة فكُتبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) هذه الآية تحثنا على فعل الحسنات، حيث وعد الله كلَّ من عمل الحسنات بوعدين كريمين الأول: أن يجزيه خيراً وذلك بمضاعفتها إلى عشر حسناتٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ كما ذكر في كتابه (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) الأنعام 160. والوعد الثاني: أن الله يؤمنه من الفزع الأكبر يوم القيامة كما قال سبحانه (لا يحزنهم الفزع الأكبر) الأنبياء 103. فعندما يتأمل المسلم بهذه الوعود فإنها تكون أكبر حافزٍ له على فعل الحسنات والإكثار منها. وفي الآية الكريمة التحذير من السيئات وأن من جاء بالسيئة كُتِبَ على وجهه في النار. وهذا وعيدٌ شديدٌ وبيِّنٌ أن السيئات طريقٌ إلى النار. فالمسلم العاقل الذي مازالَ في قلبه حياة وإيمان هو الذي يحذر كل الحذر من الوقوع في السيئات ويتعد عنها وإن وقع في شيءٍ منها بادر بالتوبة منها.

عباد الله: والناسُ على أقسامٍ ثلاثٍ بالنسبة للحسنات والسيئات ونحن منهم:

1- أصحاب الحسنات فقط وليس لهم سيئات وهؤلاء في الجنة.

2- أصحاب السيئات فقط ولا حسنات لهم وهؤلاء في النار.

3- أصحاب الحسنات والسيئات. وهم قسمين:

a. من رجحت حسناتُه فهو من أهل الجنة.

b. من رجحت سيئاتُه وهذا من أهل النار.

قال الله تعالى: (فمن ثقلت موازينُه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون، تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ).

والحسناتُ أقسامٌ والسيئاتُ أقسامٌ: فأعظم الحسنات حسنةُ التوحيد وقد قال بعض المفسرين: أنها هي المقصودة بهذه الآية (من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها) النمل 89. وقال قتاد: المقصود منها من جاء بالإخلاص. وقال زين العابدين: من جاء بلا إله إلا الله. وفي الصحيحين من حديث عتبان (فإن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله). وعن معاذ بن جبل قال: قال رسولُ الله ﷺ (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دَخَلَ الجنةَ). وحسنةُ التوحيد يُكْفَرُ اللهُ بها جميعَ السيئات كما روى الترمذي عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله تعالى: يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرةً). قال العلامة ابن القيم رحمه الله في معنى هذا الحديث: ويُعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوِّبه بالشرك مالا يُعفى لمن ليس كذلك. فلو لقي الذي لم يشرك بالله شيئاً البتة ربُّه بقراب الأرض خطايا، أتاه بقرابها مغفرةً. وهذه المغفرة لا يتحصل عليها من نقص توحيدِه. لأن توحيد الله الذي لا يخالطه شرك لا يبقى معه ذنب ولأن توحيد الله الخالص يتضمن محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قُرَابُ الأرض. فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي.

القسم الثاني من الحسنات بعد حسنة التوحيد، الحسنات المفروضة: كالصلوات الخمس والزكاة وصلة الأرحام وإكرام الضيف إلى غير ذلك من فعل ما أمر الله به.

والقسم الثالث: الحسنات المستحبة: مثل فعل النوافل ومنها قيام الليل، قراءة القرآن، صيام النوافل، والصدقة، فإنها تكمل الواجبات وتُرَفَعُ بها الدرجات.

عباد الله: ذكرنا أن الحسنات أقسام وكذلك السيئات أقسام: وأعظم السيئات سيئة الشرك. وقد قال بعض المفسرين أن المقصود بقوله تعالى: (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار) سيئة الشرك كما قال تعالى (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء). وجاء في الصحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار). فدل ذلك على أن الشرك أعظم الذنوب لأن الله لا يغفر لم يُنَبِّ منه. وأن الله حرم الجنة على المشرك وجعل النار مأواه ومصيره خالداً فيها. ومع هذا التحذير الشديد تجد بعض المسلمين يقع في الشرك من أجل لعاعة من الدنيا. وقد جاءني شاب قبل أيام وعندما نظرت في وجهه ما رأيت إلا الظلام وما رأيت إلا السواد. ثم قال لي: أسمح لي أن أتحدث إليك؟ فقلت له: تفضل. قال: يا شيخ لقد أذنبت ذنباً عظيماً. قلت له: إن الله غفور رحيم. ماذا فعلت؟ هل سرقت؟ قال: لا. ولكن الذنب أعظم! هل زנית؟ قال: لا. أعظم من ذلك! قلت له: سبحان الله. ماذا فعلت؟ قال: كفرت بالله وأشركت معه عيسى بن مريم. وذهبت إلى الكنيسة مع الخفي (المعلم) إرضاءً له وحتى أبقى مستمراً في عملي ثم إنه بعد ذلك طردني من العمل وأنا قلق ومهموم ومحزون. فقلت له: استغفر الله وتب إلى الله. ولكنه للأسف الشديد تبين لي بعد ترده عليّ مراراً وتكراراً أنه فقد عقله. هذا عقابه في الدنيا (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) (ولنذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون). وتجد بعض الشباب يقع في الشرك من أجل شهوة فانية أو من أجل جواز سفر أو جنسية أو من أجل عقد عمل أو من أجل دراهم معدودة. ثم والله ما يجد بعدها إلا حسرة وندامة ومعيشة ضنكا. (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال: رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً؟ قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى).

عباد الله: أما القسم الثاني من أقسام السيئة: سيئة الكفر: وهو الجحود والخروج من الدين. وهو نوعان:

- 1- كفر أصلي: وهو الذي لا يدين صاحبه بدين صحيح.
- 2- كفر ردة: وهو الذي كان صاحبه على الإسلام ثم خرج منه بارتكاب ناقص من نواقص الإسلام. كأن يستهزئ بالدين أو الرسول صلى الله عليه وسلم أو يسب الدين أو الرسول أو يتعلم السحر أو يعلمه أو يدعى علم الغيب أو يصدق من يدعي ذلك أو يدعي النبوة أو يصدق من يدعيها أو يرى أن حكم غير الله أحسن من حكم الله أو غير ذلك من أسباب الردة.
- 3- سيئة الفسوق: وهو المعاصي التي دون الشرك والكفر بفعل شيء من كبائر الذنوب: كالزنى والسرقه وشرب المسكرات وتعاطي المخدرات وغير ذلك مما رُتب عليه حد في الدنيا أو وعيد بالآخرة أو لعن فاعله أو توعد بالغضب أو النار. والكبائر كثيرة منها: الغيبة والنميمة وشهادة الزور وأكل الربا وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم.
- 4- سيئة المعاصي التي هي دون الكبائر: وهي ما يُسمى بالصغائر. وهي خطيرة لأن الإنسان قد يتساهل فيها وهي إذا تجمعت على الإنسان تُهلكه. وفي الحديث (إياكم ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً) وقال

بعض السلف: إن الإصرار على الصغيرة يُصيرها كبيرة. وقالوا: لا كبيرة من الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار.

فالمؤمن الصادق مع نفسه ومع ربه تسره الحسنة لأنها محبوبَةٌ عند الله تعالى والمؤمن يحب ما يُحبه ربه. ولأنها أيضاً تقربه من الله فيكثر من الحسنات. والمؤمن الصادق يكره السيئة لأن الله يكرهها والمؤمن يكره ما يكرهه الله. ولأن السيئة تُبعده عن الله. ومن كره السيئة حمله على تركها والتوبة منه. فاتقوا الله أيها الأخوة والأخوات: وأكثرُوا من الحسنات وتوبوا من السيئات لعلكم ترحمون. قال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يظلمون). بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم... .

عباد الله: جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك. فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة. وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة. وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة). وهذا الحديث يدلنا على أن عمل العبد يُكتب كُله خيره وشره. ويدلنا هذا الحديث على أن عمل العبد يُكتب كُله خيره وشره. ويدلنا أيضاً على أن المرء سبحانه على ما عزم في قلبه على فعله وإن لم يفعله وما عزم عليه وعمله. ولكن إذا عزم في قلبك على فعل الخير ولم تتمكن من فعله فُكتب لك حسنة كاملة وإن فعلته فالله يضاعف لك الحسنة إلى عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله. وإذا هممت يا أخي بفعل سيئة قم تركتها خوفاً من الله، كتبها الله لك حسنة وإن هممت بها وعملتها فُكتب عليك سيئة واحدة. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: اعلم أن تارك السيئات على ثلاثة أقسام: فمن الناس من يترك السيئة لله، فهذا تكتب له حسنة على كُفه عنها لله تعالى. وهذا عملٌ ونيةٌ كما جاء في الصحيح (فمن تركها من جرأني) أي من أجلي. ومن الناس من يترك السيئة عجزاً وكسلاً عنها بعدما يسعى في أسبابها ويتلبس بما يُقرب منها، فهذا بمنزلة فاعلها كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قال: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قيل يا رسول الله: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه). وأضرب مثلاً على ذلك: شاب خرج يسرق بيتاً فدخل هذا البيت فلم يجد فيه ما يسرق فخرج ولم يأخذ شيئاً، فهذه تكتب عليه سيئة. بينما لو خرج من بيته يريد أن يسرق نفس المنزل وفي الطريق استيقظ ضميره ثم قال: أستغفر الله، ماذا سأفعل؟ أنا مسلم لا يجوز لي السرقة. فأقطع عن هذا الفعل، فله بذلك حسنة كاملة.

فاتقوا الله أيها الأخوة والأخوات. وأكثرُوا من الحسنات وابتعدوا عن السيئات. فإن الحسنة ضياءً بالوجه ونورٌ في القلب وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق. وإن السيئة ظلمة بالوجه وسوادٌ في القلب وضيقٌ في الرزق وبُغضٌ في قلوب الخلق.